Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Ansiklopedisi

تاريخ الإمامية
وأسلافهم من الشيعة

منذ نشأة التشيع حتى مطلع القرن الرابع الهجري

تأليف

الدكتور عبد الله فياض

استاذ التاريخ الاسلامي كلية الآداب ـ جامعة بغداد

رقم تسلسل التعضيد (١٠٩)

للسنة الدراسية ٧٤ ـ ٧٥

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الثانية

١٣٩٥ هـ ـــ ١٩٧٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم سماحة الحجة السيد محمد باقر الصدر

جرى بعض الباحثين المحدثين على دراسة التشيع بوصفه ظاهـــرة طارئة في المجتمع الاسلاميوالنظر الى القطاع الشيعي من جسم الامةالاسلامية باعتباره قطاعا تكون على مر الزمن نتيجة لاحداث وتطورات اجتماعية معينة أدت الى تكوين فكري ومذهبي خاص لجزء من ذلك الجسم الكبير ثم اتسع ذلك الجزء بالتدريج •

وهؤلاء الباحثون بعد أن يفترضوا ذلك يختلفون في تلك الاحـداث والتطورات التي أدت الى نشوء تلك الظاهرة وولادة ذلك الجزء • فهناك من يفترض أن عبدالله بن سبأ ونشاطه السياسي المزعوم هو الاساس لقيام ذلك التكتل الشيعي • وهنـاك من يرد ظاهرة التشيع الى عهد خلافة الامام عليه الصلاة والسلام وما هيأه هذا العهد للامام من مقام سياسي واجتماعي على مسرح الاحداث • ومنهم من يزعم أن سـبب ظهور الشيعة يكمن في أحداث متأخرة عن ذلك في التسلسل التاريخي للمجتمع الاسلامي •

والذي دعا ـ فيما أظن ـ كثيرا من هؤلاء الباحثين الى هذا الافتراض والاعتقاد بأن التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي هو أن الشيعة لـم يكونوا يمثلون في صدر الاسلام الا جزءا ضئيلا من مجموع الامة الاسلامية فقد أوحت هذه الحقيقة شعورا بأن اللاتشيع كان هو القاعدة في المجتمـــع الاسلامي وان التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشـــاف أسبابها من خلال تطورات المعارضة للوضع السائد •

ولكن اتخاذ الكثرة العددية والضآلة النسبية أساسا لتميز القاعـــدة والاستثناء أو الاصل والانشقاق ، ليس شيئا منطقيا فمن الخطأ اعطاء الاسلام اللاشيعي صفة الاصالة على أساس الكثرة العددية واعطاء الاسلام الشـيعي صفة الظاهرة الطارئة ومفهوم الانشقاق فان هذا لايتفق مع طبيعة الانقسامات العقائدية اذ كثيرا مانلاحظ انقساما عقائديا في اطار رسالة واحدة يقوم على أساس الاختلاف في تحديد بعض معالم تلك الرسالة وقد لايكون القسمان العقائديان متكافئين من الناحية العددية ولكنهما متكافئان في اصالتهما ومعبران بدرجة واحدة عن الرسالة المختلف بشأنها •

فلا يجوز بحال من الاحوال أن تبني تصوراتنا عن الانقسام العقائدي داخل اطار الرسالة الاسلامية الى شيعة وغيرهم على الناحية العددية • كمـا لايجوز أيضا أن نقرن ولادة الاطروحة الشيعية في اطر الرسالة الاسلامية بولادة كلمة الشيعة أو التشيع كمصطلح واسم خاص لفرقة محددة مـــن المسلمين لان ولادة الاسماء والمصطلحات شيء ونشوء المحتوى وواقع الاتجاه والاطروحة شيء آخر فأذا كنا لانجد كلمة الشيعة في اللغة السائدة في حياة الرسول (ص) أو بعد وفاته فلا يعني هذا أن الاطروحة والاتجاه الشـيعي لم يكن موجوداً • فبهذه الروح يجب أن نعالج قضية التشيع والشيعة ونجيب على السؤالين التاليين :ـ

كيف ولد التشيع وكيف ولد الشيعة ؟

أما فيما يتعلق بالسؤال الاول كيف ولد الشـــيع فنحن نستطيع أن نعتبر التشيع نتيجة طبيعية للاسلام وممثلا لاطروحة كان من المفروض للدعوة الاســلامية أن تتوصل اليها حفاظا على نموها السليم ، ويمكننا أن نســتنتج هذه الاطروحة استنتاجا منطقيا من الدعوة التي كان الرسول الاعظم يتزعم قيادتها بحكم طبيعة تكوينها ونوع الظروف التي عاشتها • فأن النبي صـلى الله عليه وآله كان يباشر قيادة دعوة انقلابية ويمارس عملية تغيير شـــامل للمجتمع وأعرافه وأنظمته ومفاهيمه ولم يكن الطريق قصيرا أمام عمليـــة

التغيير هذه بل كان طريقا طويلا وممتدا بأمتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والاسلام فكان على الدعوة التي يمارسها النبي أن تبدأ بأنسان الجاهلية فتنشئه انشاءً جديدا وتجعل منه الانسان الاسلامي الذي يحمـل النور الجديد الى العالم وتجتذ منه كل جذور الجاهلية ورواسبها وقد سار القائد الاعظم (ص) بعملية التغيير خطوات مدهشة في برهة قصيرة وكان على العملية أن تواصل طريقها الطويل حتى بعد وفاة النبي (ص) •

وكان النبي يدرك منذ فترة قبل وفاته أن أجله قد دنا واعلن ذلك بوضوح في حجة الوداع ولم يفاجئه الموت مفاجأة وهذا يعني انه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده حتى اذا لم ندخل في الموقـف عامل الاتصال الغيبي والرعاية الالهية المباشرة للرسالة عن طريق الوحي •

وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ أن النبي (ص) كان أمامه ثلاثة طرق بالامكان انتهاجها تجاه مستقبل الدعوة •

الطريق الاول أن يقـف من مستقبل الدعـوة موقفـا سلبيا ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الدعوة وتوجيهها فترة حياته ويترك مســـــتقبلها للظروف والصدف •

وهذه السـلبية لايمكن افتراضها في النبي (ص) لانها انما تنشأ مـن أحد أمرين كلاهما لاينطبقان عليه (ص) •

الامر الاول

الاعتقاد بأن هذه السلبية والاهمال لاتؤثر على مستقبل الدعـــوة وان الامة التي سوف يخلف الدعوة فيها قادرة على التصرف بالشكل الذي يحمي الدعوة ويضمن عدم الانحراف • وهـــذا الاعتقاد لا مبرر له من الواقـع اطلاقا بل ان طبيعة الاشياء كانت تدل على خلافه لان الدعوة بحكم كونهـا عملاً تغييرياً انقلابياً في بدايته يستهدف بناء أمة واستئصال كل جذور الجاهلية منها تتعرض لاكبر الاخطار اذا خلت الساحة من قائدها وتركهـا دون أي

تخطيط • فهناك الاخطار التي تنبع عـن طبيعة مواجهـة الفـراغ دون أي تخطيط سابق وعن الضرورة الآنية لاتخاذ موقف مرتجل في ظل الصدمة العظيمة بفقد النبي فأن الرسول اذا ترك الساحة دون تخطيط لمصير الدعوة فسوف تواجه الامة ولاول مرة مسؤولية التصرف بدون قائدها تجاه أخطر مشاكل الدعوة وهي لاتملك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد وسوف يتطلب منها الموقف تصرفا سريعا آنيا بالرغم من خطورة المشكلة لان الفراغ لايمكن أن يستمر وسوف يكون هذا التصرف السريع في لحظة الصدمة التي تمنى بها الامة وهي تشعر بفقدها لقائدها الكبير هذه الصدمة التي تزعزع بطبيعتهـا سير التفكير وتبعث على الاضطراب حتى انها جعلت صحابيا معروفا يعـلن بفعل الصدمة أن النبي (ص) لم يمت ولن يموت • وهناك الاخطار التـي تنجم عن عدم النضج الرسالي بدرجة تضمن للنبي مسبقا موضوعية التصرف الذي سوف يقع وانسجامه مع الاطار الرسالي للدعوة وتغلبه على التناقضات الكامنة التي كانت لاتزال تعيش في زوايا من نفوس المسلمين على أسـاس الانقسام الى مهاجرين وأنصار أو قريش وسائر العرب أو مكة والمدينة • وهناك الاخطار التي تنشأ نتيجة لوجود القطاع المتستر بالاسلام والذي كان يكيد له في حياة النبي باستمرار وهو القطـاع الذي كان يسميه القران بالمنافقين واذا أضفنا اليهم عددا كبيرا ممن أسلم بعد الفتح استسلاما للامـر الواقع لا انفتاحا على الحقيقة نستطيع أن نقدر الخطر الذي يمكن لهـــذه العناصر أن تولده وهي تجد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مـع خلو الساحة من رعاية القائد •

فلم تكن اذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي شيئا يمكن أن يخفى على أي قائد ممارس للعمل العقائدى فضلا عن خاتم الانبياء • واذا كان أبو بكر لـم يشـأ أن يترك الساحة دون أن يتدخل تدخلاً ايجابيا في ضمان مستقبل الحكم بحجة الاحتياط للامر واذا كان الناس قد هرعوا الى عمر حين ضرب قائلين ياأمير المؤمنين لو عهدت عهدا[1] خوفا من الفراغ الذي سوف يخلفه

(١) تاريخ الطبري : ج٥ ص٣٤

الخليفة بالرغم من التركز السياسي والاجتماعي الذى كانت الامة قد بلغته بعد عقد من وفاة الرسول (ص) واذا كان عمر قد أوصى الى ستة تجاوبا مع شعور الآخرين بالخطر واذا كان عمر يدرك بعمق خطورة الموقف في يوم السقيفة وما كان بالامكان أن تؤدي اليه خلافة أبي بكر بشكلها المرتجل من مضاعفات إذ يقول ان بيعة أبي بكـر كانت فلتة غير أن الله وقى شرهـا[2] واذا كان أبو بكر نفسه يعتذر عن تسرعه الى قبول الحكم وتحمل المسؤوليات الكبيرة بأنه شعر بخطورة الموقف وضرورة الاقدام السريع على حل ما اذ يقول وقد عوتب على قبول السلطة ان رسول الله (ص) قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية فخشيت أن يفتتنوا وأن أصحابي حملونيها[3] •

اذا كان كل ذلك صحيحا فمن البديهي اذن أن يكون رائد الدعـوة ونبيها أكثر شعورا بخطر السلبية واكبر ادراكا واعمق فهما لطبيعة الموقف ومتطلبات العمل التغييري الذى يمارسه في أمة حديثة عهد بالجاهلية عـلى حد تعبير أبي بكـر •

والامر الثاني

الذى يمكن أن يفسر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومصيرها بعد وفاته أنه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لايحاول تحصين الدعـوة ضد ذلك الخطر لانه ينظر الى الدعوة نظرة مصلحية فلا يهمه الا أن يحافظ عليها مادام حيا ليستفيد منها ويستمتع بمكاسبها ولا يعنى بحماية مسـتقبلها بعد وفـــاته •

وهذا التفسير لايمكن أن يصدق على النبي (ص) حتى اذا لم نلاحظه بوصفه نبيا ومرتبطا بالله سبحانه وتعالى في كل مايرتبط بالرسالة وافترضناه قائدا رساليا كقادة الرسالات الاخرى لان تأريخ القادة الرساليين لايملك نظيرا للقائد الرسول في اخلاصه لدعوته وتفانيه فيها وتضحيته من أجلهـا

(٢) تاريخ الطبري : ج٣ ص٢٠٠
(٣) شرح النهج لابن أبي الحديد : ج٦ ص٤٢

الى آخر لحظة من حياته وكل تأريخه يبرهن على ذلك وقد كان صلى الله عليه وآله على فراش الموت وقد ثقل مرضه وهو يحمل هم معركة كان قد خطط لها وجهز جيش اسامة لخوضها فكان يقول جهزوا جيش اسامة انفذوا جيش اسامة ارسلوا بعث اسامة يكرر ذلك[1] ويغمى عليه بين الحين والحين • فاذا كان اهتمام الرسول (ص) بقضية من قضايا الدعوة العسكرية يبلغ الى هذه الدرجة وهو يجود بنفسه على فراش الموت ولا يمنعه علمه بأنه سيموت قبل أن يقطف ثمار تلك المعركة عن تبنيه لها وان تكون همه الشاغل وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة فكيف يمكن أن نتصور ان النبي لايعيش هموم مستقبل الدعوة ولا يخطط لسلامتها بعد وفاته من الاخطار المرتقبة •

وأخيرا فأن في سلوك الرسول (ص) في مرضه الاخير رقما واحدا يكفي لنفي الطريق الاول وللتدليل على أن القائد الاعظم كان أبعد مايكون عن فرضية الموقف السلبي تجاه مستقبل الدعوة لعدم الشعور بالخطر او لعدم الاهتمام بشأنه وهذا الرقم أجمعت صحاح المسلمين جميعاً سنّة وشيعة على نقله وهو أن الرسول لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال (ص) ائتوني بالكتف والدواة اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا[2] •

فأن هذه المحاولة من القائد الكريم المتفق على نقلها وصحتها تدل بكل وضوح على أنه كان يفكر في أخطار المستقبل ويدرك بعمق ضرورة التخطيط لتحصين الامة من الانحراف وحماية الدعوة من التميع والانهيار فليس من الممكن افتراض الموقف السلبي بحال من الاحوال •

الطريق الثاني

أن يخطط الرسول القائد لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتخذ موقفا ايجابيا فيجعل القيمومة على الدعوة وقيادة التجربة للامة ممثلة على أساس نظام الشورى في جيلها العقائدي الاول الذى يضم مجموع المهاجرين

(١) تأريخ الكامل لابن الاثير وغيره •

(٢) مسند أحمد : ج١ ص٣٥٥ وصحيح مسلم : ج٢ في آخر الوصايا وصحيح البخاري الجزء الاول كتاب العلم •

والانصار فهذا الجيل الممثل للامة هو الذي سيكون قاعدة للحكم ومحوراً لقيادة الدعوة في خط نموها •

وهنا أيضا نلاحظ أن طبيعة الاشياء والوضع العام الثابت عن الرسول والدعوة والدعاة يرفض هذه الفرضية وينفي أن يكون النبي قد انتهج هذا الطريق واتجه الى ربط قيادة الدعوة بعده مباشرة بالامة ممثلة في جيلها الطليعي من المهاجرين والانصار على أساس نظام الشورى •

وفيمايلي بعض النقاط التي توضح ذلك :

١ - لو كان النبي (ص) قد اتخذ من مستقبل الدعوة بعده موقفاً ايجابيا يستهدف وضع نظام الشورى موضع التطبيق بعد وفاته مباشرة واسناد زعامة الدعوة الى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام لكان من أبده الاشياء التي يتطلبها هذا الموقف الايجابي أن يقوم الرسول القائد بعملية توعية للامة والدعاة على نظام الشورى وحدوده وتفاصيله واعطائه طابعاً دينياً مقدسا واعداد المجتمع الاسلامي اعدادا فكريا وروحيا لتقبل هذا النظام وهو مجتمع نشأ من مجموعة من العشائر لم تكن قد عاشت قبل الاسلام وضعا سياسيا على أساس الشورى وانما كانت تعيش في الغالب وضع زعامات قبلية وعشائرية تتحكم فيها القوة والثروة وعامل الوراثة الى حد كبير •

ونستطيع بسهولة أن ندرك أن النبي (ص) لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفاصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية لان هذه العملية لو كانت قد انجزت لكان من الطبيعي أن تنعكس وتتجسد في الاحاديث المأثورة عن النبي صلى الله عليه وآله وفي ذهنية الامة أو على اقل تقدير في ذهنية الجيل الطليعي منها الذي يضم المهاجرين والانصار بوصفه وهو المكلف بتطبيق نظام الشورى ، مع اننا لا نجد في الاحاديث المأثورة عن النبي (ص) أي صورة تشريعية محددة لنظام الشورى • واما ذهنية الامة أو ذهنية الجيل الطليعي منها فلا نجد فيها أي ملامح أو انعكاسات محددة لتوعية من ذلك القبيل •